

٣ - الخواص العامة للحرب النووية

رأينا فيما سبق من البحث ، في عدد من المناسبات ، تنوع القنابل النووية ، وتصاعد قدرتها التدميرية من مستوى اقوى القنابل الكلاسيكية الى مستويات تصل فيها الى ملايين اطنان ال (ت . ن . ت) : ١٥ وعشرين مليون طن واكثر . وقلنا ان لدى كل من المعسكرين من القنابل النووية اكثر مما يكفي لتدمير الحياة على الكرة الارضية . فمن العبث اذن البحث عن موازنة بين قوى المعسكرين في هذا المجال ، القوى التي تحاط على كل حال بالسرية التامة ، كما سبق وقلنا . ولكن يجب ان لا يغيب عن بالنا ان الاسلحة وذخائرها ، وخاصة منها الاسلحة الصاروخية النووية ، توضع في هذا العصر في انظمة مناسبة معقدة تنتشر على مساحات واسعة من الكرة الارضية . وتتداخل في كثير من الحالات انظمة المعسكرين . فنجد مثلا اساطيل الجهتين تمخرلجج البحار ذاتها ، كما يمتلئ الفضاء الخارجي باقمارهما . وقد رأينا كيف تنتشر قواعد الولايات المتحدة الاميركية في كل انحاء العالم الراسالي ، متقدمة ومتخلفة ، القواعد المحاصرة بكره وعداء الشعوب لها .

وقد سبق وبرهنا على استحالة الحرب المحدودة بين المعسكرين ، كما برهنا على ان الصدام بينهما لا يمكن ان يكون الا في اقصى درجات العنف المتوفرة الوسائل ، فتستخدم فيه كل ما لدى الطرفين من اثقل الاسلحة الصاروخية النووية واخفها ، وذلك بحسب الحاجة وحسب الظروف والمهدف . وقلنا ايضا ان الحرب النووية هي حرب يحاول فيها كل طرف ان يلحق اقصى ما يمكن من الدمار الشامل بالطرف الآخر ، يحاول فيها كل طرف ان يقضي على مقومات مجتمع الطرف الآخر بكليتها ، ليصل بالتالي الى وضع قواه العسكرية في فراغ عديم لا تجد فيه اي سند او مدد ، فتتبله وتنتهار ، او انها تخرج من مخابئها لتفتش عبثا عن الحياة فلا تجد الا الدمار يحيط بها والفناء يتساقط عليها من السماء . وفي مثل هذه الحالة

يبدوننا ان الصراع النووي يرتبط بالامور التالية :

١ . بدرجة كمال الجهاز العسكري العالمي لكل طرف ، من كل النواحي التقنية مع الكفاءات الانسانية المتوفرة .

٢ . بالارض التي يقوم عليها هذا الجهاز . فالاحتكاريون الاميركان مثلا اعداء لشعوب العالم قاطبة ، ومن جملتها شعب بلدهم الولايات المتحدة الاميركية بالذات . لذلك فان جهازهم العسكري محاصر ومقطع بعداء الانسان لاصحابه . فهو لا يعطي كل المردود التقني المنتظر منه . ولو حزمت الشعوب امرها ، وقامت قومة الرجل الواحد ، في اطار دعوة انسانية شاملة (لا يمكن ان تغطي بعض المصالح الصغيرة لهذا الجهاز بمختلف الاشكال لهذه الفئة او تلك) ، نقول لو حزمت الشعوب امرها وتصدت لهذا الجهاز بمختلف الاشكال الملائمة الناجعة ، الاشكال التي قد تصل هنا وهناك الى المقاومة بالسلاح ، كما حدث في الماضي في عدد من مناطق الارض ، اذن لثم ايقاف اولئك الاحتكاريين عند الحدود المعقولة التي تضمن سلامة الحياة على الارض . ولقد كان للرأي العام العالمي في حرب الفيتنام ، وعلى الاخص منه ثورة الشعب الاميركي بالذات على حكامه ابان هذه الحرب ، ورفض مئات الوف الشباب الاميركي تأدية خدمتهم العسكرية بالشكل الذي خططه خدم الاحتكاريين في البتساغون لتكون تلك الخدمة في متاهات الفيتنام ، نقول ان ذلك الرأي العام العالمي تمكن الى حد كبير من المساهمة في لجم اولئك المعتدين . وقد هزم واذل جهازهم العسكري العالمي واصيب بخسائر فادحة ، وبدا حينذاك عاجزا كل العجز عن تحقيق رغبات اصحابه في اذلال الانسان . وكمن تمنى جنرالات البتساغون تجربة «عضلاتهم» النووية في تلك الحرب . يقول الجنرال ديفرس الذي سبق لنا ان استشهدنا ببعض كلامه * : «لايجاد علاج للتدني العددي للغربيين ، هنالك حل يفرض نفسه : بعثرة قوى العدو . وللحصول على ذلك يجب استعمال القنبلة الذرية ، كنا نجرى في صحراء نيفادا تجارب مستندة على هذه الغاية . فنقذف عدداً من القنابل النووية في مجال محدد . وتنشأ بهذا الشكل فجوة قطرها بين ٢٠ - ٣٠ كم ، لا يمكن ان تبقى فيها على قيد الحياة اية قوة عدوة . وتصل بعد ذلك بدقائق قوى القتال الذري الى المواقع محمولة على طائرات شرعية

* سجناء العالم الذري . ص ١٩٤ - ١٩٥ .

او على طائرات نقل . كانت امنيتي اجراء مناورة ذات اسلوب عظيم خلال موقع ديان بيان فو ولكن امني هذا الجنرال المسعور لم تتحقق حينذاك ، كما لم تتحقق امني الجنرالات الآخرين في البنتاغون باستعمال السلاح الذري عندما تدخلت اميركا بقضها وقضيضها في تلك الحرب . وقد هزمت النيات العدوانية الوحشية الاميركية ، امام التصميم العالمي حينذاك .

ان الشيء الحاسم في موضوع التصدي للمستعمرين هو عدم الخطأ في تقدير نياتهم ، وفي تقدير لامبالاتهم في اباده الشعوب ليصلوا الى اهدافهم . فالذي يتجرأ مثلاً في اواخر القرن العشرين على معاملة العرب كما عامل الهنود الحمر وغيرهم من الاقوام من اباده وتشريد من الديار في مطالع عهوده العبودية ، وهو ما يزال يبارس اساليب مماثلة في شتى بقاع الارض : من هضم للحقوق وقهر وتقتيل ، لا يتردد ابداً في اباده اي مجتمع ، كبيراً او صغيراً ، في اية دولة كانت فيما لو اتاحت له الفرصة وضمن عدم العقاب على افعاله هذه . ثم انه لن يتردد في وصف هذه الافعال بانها عمل انساني ويروي لنا ارفين اوينهايمر خبراً يتلخص في حديث دارينه وبين ولهم هارتمان ، احد الثقات الكبار في المخابرات الاميركية ، فيقول * : « انا لا افهم يا ارفين انك تنسى ان القبلة الذرية ساعدتنا على انقاذ ارواح مئات آلاف الجنود ان اوربا ستضيع في حرب ذرية فالتجمع السكاني خمسين مليون نسمة على ٣٠٠ الف كيلومتر مربع كما هي حال المانيا اليوم ، او الخمسين مليون انجليزي المكديسين على الجزر الضيقة كالدهاليز ، ان مثل هذا التجمع يحول هذه البلاد الى بلاد محرومة من الحماية . لقد كانت هذه البلاد قوة في العصر الذي كان فيه تركيز الوسائل في حيز صغير منبعاً للقوة . ومع ذلك فقد وجدت المانيا وانجلترا نفسيهما خلال الحرب العالمية الثانية بسبب الحالة هذه بانها عرضة للاصابة وقد ركع الرايخ الثالث على ركبتيه بالقاء اربعمائة الف طن (ت . ن . ت) عليه ، ولكنك تعلم جيداً ان قبلة هيدروجينية واحدة تمثل ثمانمائة الف طن (ت . ن . ت) ان اوربا ستختفي كما اختفت قارة «الاتلانتيد» ان المدن الالمانية التي اعيد بناؤها منذ عام ١٩٤٨ هي في الحقيقة اكثر ترفيها من تلك التي كانت قبل الحرب (وتساءل نحن هنا عن

* المرجع السابق ، ص ١٤٧ - ١٥٨ .

يرتفع في أوروبا بعد فنائها واهلها بالقنابل النووية . . . : من عندنا) . فلولا بساط القنابل الاميركية لبقى الالمان يعيشون في بيوتهم القديمة العهد العجيبة غير الصحية . ولولا الحرب لما تجرأوا مطلقا على لمس الاحياء التاريخية لنورنبرغ اولمونيخ ، عندما يسدعي الامر هدم كل شيء : كاتدرائيات ، حصون ، متاحف ، كل هذه البقايا . . . كي يستيقظ الاوروبيون اخيرا ويفهموا اننا في القرن العشرين (ولكن كيف السبيل الى ايقاظهم بعد فنائهم بالقنابل النووية بحسب منطلقات فرضية هذا الضبع . . . : من عندنا) . . . اننا في القرن العشرين ويمكن بالاسمنت المسلح عمل اشياء اجود بعشرة آلاف مرة من الحجر ، شريطة ان ننحي اجلالا للرسم الزيتية التي علتها الاشينيات (ديدان الفناء) وامام الغرائيت المهترىء

بقي لنا ان نقول ان هذا «الوهلم هارتمان» هو من المؤمنين القلائل على الاسرار الذرية الاميركية ، فقد كان يعمل في المخبرات الذرية الاميركية في لوس الاموس ، لمراقبة عمل العلماء الذريين هناك . وهو من اصل الماني جندهته المخبرات الاميركية في اثرائبير المانيا النازية . وقد ساهم في الكشف عن «الكنز» النووي الالماني في اينسبروك ويمكن للمخبرات الاميركية من وضع يدها على القنابل النووية الخمس ، التي القيت منها اثنتان على هير وشيما وناغازاكي . وقد مر معنا خبر هذا فيما سبق من البحث . ثم ان اي تعليق على الاقوال الأنفة الذكر لهذا الضبع يقصر عن الوصف الذي تقدمه الاقوال بالذات لفظاعتها وهمجيتها . ولكن باي شيء يختلف ريغن وهيغ واضرابها هناك عن هذا الوحش عندما يمنون الاوربيين واليابانيين (ونحن ايضا بقواعدهم المنتشرة في منطقتنا) بحفظ ثرواتهم وقيمهم بعد فنائهم بالقنابل النووترونية . . . بالقنابل النووترونية مفتاح كل ما تحتويه الترسانة النووية من انواع القنابل . . .

٣ . ونستمر اذن فنقول ان الصراع النووي يرتبط : بمقدرة اصحاب الجهاز العسكري العالمي على استخلاص اقصى مردود منه . فنحن نعلم مثلا كيف تعثرت الحملة العسكرية التي شنتها اميركا على ايران في اعقاب حادث السفارة الاميركية في طهران ، وذلك على الرغم من الاعداد لها اشهراً طويلة . وكان ذلك الفشل المخزى قد وقع دون مواجهة اي عدو هناك ، وكان يشرف على تنفيذ تلك المغامرة الرئيس الاميركي بالذات محاطا باركان حربه . . .

ان خطر الابادة الشاملة للحياة على كوكبنا مائل ، ولا يبعده الا وعي الناس له في كل انحاء العالم ، وتآزرهم بصدق لمنعه ، ثم ، وهذا اهم من اي امر آخر ، الحزم في مواجهة اعداء الانسان ، وافهامهم بشكل حاسم : انهم وثوراتهم سيكونون من اول من ستتناوله تدابيرهم المجرمة ضد الحياة . وعندئذ سيهون امرهم ، ويتبدد شملهم ، وتذهب ريحهم . وان تجرأوا في نهاية الامر على اشعال حرب نووية يائسة فانهم في هذه الحالة سيحرقون بها وحدهم ولا يأتي هذا الامر بسهولة ، ولا بد لبولوجه من دأب طويل صابر .

وبعد ، فان الدفاع والهجوم في كل صراع يتكاملان . وهما يحرزان عبر العصور تقدما متكافئا على العموم في وسائلهما واساليبهما . وفي هذا العصر الصاروخي النووي ، اكثر من اي عصر سبق ، لا يمكن ابدا تصور دفاع يسيطر بشكل مطلق على كل هجوم مهما كان نوعه ، كما لا يمكن لهجوم ان يمر سالما بشكل مطلق خلال دفاعات العدو المصمم . وبين هذا وذاك لا بد من ان تنجح بعض الهجمات النووية بوسائلها المتقدمة باختراق دفاعات العدو ، وان تصل الى اهدافها . وستكون هذه الهجمات كافية لايقاع الابادة الشاملة بمجتمع هذا العدو . ذلك لأن قوى التفجير النووي بلغت من الشدة درجة يكفي معها ذلك البعض ، الذي نفذ عبر دفاعات العدو ، لاحداث الدمار الشامل في المجتمعات هناك . ثم ان ما يدمر من الصواريخ النووية ، مع الحملات الاخرى للأسلحة النووية ببالدفاعات (التي هي في اكثرها نووية ايضا) لا بد من ان ينشر الموت والدمار في المنطقة التي يقع فيها التدمير بين الطرفين المتحاربين : ان الاتحاد السوفياتي مثلا عندما يدمر فوق اوربا الغربية الصواريخ الاميركية الطائرة الموجهة اليه ، بصواريخ نووية ، فان نتائج هذا التدمير لا بد من ان يكون لها ذلت مفعول الاسلحة النووية الموجهة مباشرة الى هذه القارة (ان لم نقل اشد ، على اعتبار ان هنالك سلاحين ينفجران ، الاميركي المهاجم والسوفياتي المدافع ، في الاجواء الاوربية بدلا من سلاح واحد مهاجم) .

ويقول فرانك برنابي المشار اليه آنفا * : «اذا لم تكبح القوى الكبرى التطور المستقبلي للأسلحة الذرية ، فان انواعا جديدة ستظهر دون شك ، وستجعل الاسلحة الرهيبة حاليا تبدو بدائية بالتسبة اليها» .

* الانسان والذرة ص ١٩٢ - ٢٠١